التأنيث في العربية

الأستاذ عبدالحق فاضل «الدار البيضاء»

قرات منذ اكثر من عشرين عاما — في مطبوع ما ، لعله مجلة غاب عن بالي عنوانها — لمستشرق نسيت اسمه — بحثا شائقا حاول فيه تفسير ظاهرة التانيث في لغتنا بما فيها من غرابة ومفارقات. والذي تستطيع الذاكرة ان تستعيده الآن من ذلك البحث هو النقطتان الاساسيتان اللتان عليهما كان مدار الموضوع.

النقطة الاولى قوله ان العرب انثوا من الجمادات ما هو شبيه بالانوثة مما كان مثقوبا او عميقا او موطوءا او نحو ذلك ، كالرحي والبئر والارض . وبوسعنا جريا على هذه النظرية ان نضيف الى ذلك من الجمادات المؤنثة التي تشبه المراة ما كان ساميا كالسماء، ووهاجا كالشمس ، ومتقلبا كالريح ، ومحرقا كالجحيم، ومدمرا كالحرب ..

والنقطة الثانية قوله ان العرب كانوا قد مروا في احد عهودهم القدمى بمرحلة الامومة كغيرهم من الامم ، اي مرحلة سيادة المراة الام على العائلة قبل الانتقال الى مرحلة الابوة اي سيادة الرجل الاب . ويخيل لي ان المستشرق قد استشهد على رايه هذا بنبذة من كلام هيرودتس عن علاقة مغايرة للمالوف الحديث كانت على عهده قائمة بين الرجل والمراة ، لدى بعض العرب ، ولا نحسب ان ذلك الاستشهاد كان وافيا بمرامه لانه لا يدل على سيادة المراة فيما نذكر . وعلى اية حال كان من تاثير سيطرة الانثى الام، على قوله ، ان العرب انثوا الكثير من اسماء الاشياء غير المؤنثة ، حتى من الذكور البشر ، كتانيث اسم العدد من الثلاثة الى العشرة ، فقالوا مثلا : (ثلاثة) رجال ، بدلا من : ثلاث رجال .

ولا يحق لنا التمادي اكثر من هذا في عرض راي الباحث المستشرق اعتمادا على الذاكرة بعد هذا الامد المتطاول ، مخافة ان نظلم الرجل فنعزو اليه ما نتوهم انه قاله وهو لم يقله ، او قاله على نحو آخر . لكننا نذكر اننا حين قرانا ذلك البحث لم نقتنع بتاويلاته ولو اننا تقبلناه على انه مقال طريف ومحاولة جريئة لتفسير ظاهرة لغوية غريبة ، من زاوية جديدة .

اما بصدد النقطة الاولى فان الكثير من اسماء الجمادات لا يخضع للقاعدة المذكورة فقد وردت في العربية مؤنثات من الجمادات لا مشابهة لها بالانوثة كالعصا والفاس والذراع ، ومذكرات لا شبه لها بالذكورة كالوادي والغار ، والجب المرادف للبئر المؤنثة .

واما بصدد النقطة الثانية فاذا اعتبرنا التانيث في بعض الحالات تكريما للمراة حيث قيل سبعة رجال فان الباحث لم يذكر فيما نظن ان اسم العدد يذكر ايضا مع المؤنث — مما يقلل هيبة المراة ويقلل من سطوتها — فيقال (سبع) نساء ، بدلا من سبعة نساء . ولعل المستشرق الفاضل قد ذكر ذلك وفسره بطريقة لم تقنعنا على كل حال .

ولاندري الآن ما اذا كان قدفاته كذلك ان الجمادات تؤنث وتذكر في اللاتينية وبناتها . فهل نعزو ذلك الى مشابهة المسميات للذكورة والانوثة او الى سيطرة الام على الرومان قبل ان تتوطد لديهم سيطرة الاب ايضا ؟

ويلاحظ ان اسم الجماد الخلو (1) في اللاتينيات اما مذكر فقط واما مؤنث فقط . واما في العربية فان الكثير من اسماء الاخلاء يجوز فيها التذكير والتانيث . فهذا يضعف راي المستشرق الباحث في قوله ان لمشابهة الاشياء بالانوثة علاقة بالمسالة . ولو نحن مضينا في التطبيق قياسا على نظريته لقلنا ان جواز التذكير والتانيث في الكثير من اسماء الاخلاء في العربية يدل على مرور العرب بعهد سادت فيه الخنثى على العائلة.

قبل الادلاء برايانا في تفسير ظاهرة التانيث يطالبنا الانصاف ان نحيي هذا الجهد المخلص الذي انفقه المفضال المستشرق — المجهول لدينا في الوقت الحاضر ، وقد نهتدي الى معرفة اسمه ذات يوم — فهو وامثاله من الباحثين الاجانب ، الذين قاموا بعملية استكشاف واسعة المجال في قارة التراث العربي ومنه تراث اللغة ، قد اسدوا الى العربية خدمات قيمة مشكورة ، ولا عتب عليهم ان اخطاوا احيانا ، فان لهم الفضل انهم اصابوا احيانا كثيرة اخرى .

الضمائر العربية :

اذا حللنا الضمائر العربية — انا ، انت ، هو .. الخ — نجدها تتالف من ثلاثة عناصر اساسية : الالف والنون والتاء . وقد تطرقنا في كتابنا « مغامرات لغوية » (في فصل اسرار الضمائر) (2) بشيء من التفصيل الى هذه العناصر الضميرية الثلاثة التي نطقها الانسان الاقدم (ا) و (نـا) و (وتـا) اول الامر ، ثم تطورت فتعددت صيغها وتنوعت معانيها ، اي ان الاقدمين كانوا يختلفون في نطق هذه الضمائر فتنشأ لها صيغ كثيرة ، وكانوا لفقرهم اللغوي يستعملون كلا من تلك الصيغ في مختلف المعاني التي يتوقون الى الافصاح عنها ولا يجدون الالفاظ المعبرة عن كل منها .

وكانوا يلحقون هذه العناصر البدائية الثلاثة (ا ، نا ، تا) بالاسماء والافعال كضمائر او اسماء اشارة ، فمن الحاقهم الهمزة بها مفتوحة ومضمومة ومكسورة نشأت حركات الاعراب ، ومن الحاق النون بها نشأ التنوين بمختلف حالاته .

التـــاء :

والذي يهدينا اليه استعراض الضمائر العربية في شتى احوالها وصورها هو ان هذه العناصر الضميرية البدائية الثلاثة لم تنشأ في مكان واحد عند فريق معين من الاعربين (العرب الاوائل) ، بل ان كل طائفة منهم كانت تستعمل واحدا من هذه الضمائر. ففريق منهم كانوا يستعملون ضمير (تا) كما كان فريق ثان يستعملون ضمير (ا) وفريق ثالث ضمير (نا) كالذي فصلناه وعللناه في كتابنا الآنف الذكر ، فلا حاجة للاعادة فيه هنا .

وهكذا كان نصيب التاء ان الحقوها كاخويها الضميرين الآخرين بالاسماء والافعال . وهذا هو سر وجود التاء في بعض الاسماء مثل : جبهة ، هضبة ، اجمة ، مقدرة ، خشية .

فليس التانيث هو الغرض من التاء في اسماء هذه الاشياء المجردة من اي اثر لاي تانيث او تذكير ، وانما التاء هنا مجرد بقية اثرية من عهد لغوي مندرس بعيد كانوا فيه يلحقونها بكل الاسماء والافعال .

وقد كان من نتيجة اختلاط القبيل الذين يستعملون التاء بغيرهم من الاعربين الذين لا يستعملونها ان ضعف شانها وقل استعمالها حتى انها سقطت من كثير من الافعال مثل : افعل ونفعل ويفعلون ، ومن معظم الاسماء مثل : جبل ، طير ، نهر ، ارض ، كوكب ، تراب ، بحر ... وبقيت عالقة باسماء اخرى كالتي ذكرناها : هضبة ، جبهة ، الخ ... وبقيت متارجحة في اسماء اخرى حيث يمكن حذفها واثباتها في مثل : ليل ونجم .

قلنا ان التاء الحقوها بالاسماء والافعال لاداء معنى الضمائر او اسماء الاشارة اول الامر ، لكن تطاول الاحقاب وتعاقب الاجيال جعلها تظهر اولا في صور مختلفة بسبب اختلاف القوم في نطقها كما قلنا ،

---

1) نستعمل كلمة الخلو — زنة الصفو والشلو — بمعنى الشيء الخالي من الانوثة والذكورة . ومؤنثها : الخلوة ، وجمعها : الاخلاء — زنة الاشلاء .

2) وفي مجلة « اللسان العربي » العدد الخامس ، لسنة 1967 .

وتؤدي ثانيا اغراضا مختلفة بسبب الفقر اللغوي الذي المعنا اليه ما اضطرهم الى استعمال الكلمة الواحدة في اكثر من معنى واحد .

فمن اختلاف الطوائف الاعرابية في نطقها نجدها في لغتنا مضمومة ومفتوحة ومكسورة وساكنة . ومن بقايا استعمالها بمعنى مختلف الضمائر سوف يستغرب القارىء ان نقول له ان (تو) ما زالت تعني انا بالعربية ، وان (تا) تعني انت المخاطب ، و (تي) تعني انت المخاطبة ، و (ات) تعني هي . لكننا نجد هذا كله جليا مدهشا في الفعل الماضي ، فالتاء المضمومة تعني انا في فعلت (= فعل + تو)، والمفتوحة تعني انت في : فعلت (= فعل + تا) ، والمكسورة تعني انت في : فعلت (= فعل + تي) ، والساكنة تعني هي في : فعلت (= فعل + ات) . وهذه الصيغة الاخيرة (ات) قد ذابت همزتها كما تذوب الهمزة في كثير من الحالات التي سميت فيها همزة وصل .

وظائف التاء :

اوضحنا في كتابنا المذكور كيف تفقد الضمائر احيانا وظائفها اي معانيها ، او تعتاض منها وظائف اخرى . وقد كان شأن التاء في هذا شأن غيرها من الضمائر فقد تتلبث عليها احداث لغوية افقدتها وظيفتها احيانا وابدلتها بها وظائف اخرى احيانا اخرى ، في ظروف تطورية مثيرة ، نجملها فيما يلي :

اولا : فقدت التاء وظيفتها تماما في بعض الاسماء مثل : نجمة وضفدعة وماءة — فيجوز لك حذف التاء من هذه الاسماء فتقول : نجم وضفدع وماء ، بنفس المعنى . اي ان التاء هنا لم تستطع ان تجد لها وظيفة ما او تتخصص بحالة معينة تميزها عن حالة تجرد الاسم من التاء . فيمكننا على هذا ان نسميها (التاء الزائدة)

ثانيا : وجدت التاء لنفسها بعض الوظائف تؤديها في بعض الحالات ، من ذلك انها تغير معاني بعض الالفاظ مثل : الظهير والهاجر والجر . فهذه الالفاظ تكتسب معاني جديدة ليست لها اية علاقة بمعانيها الاصلية حين تلتحق بها التاء فتصبح : الهاجرة والظهيرة والجرة . فهذه قد يجوز تسميتها (تاء التغيير).

ثالثا : صارت التاء تختلق معنى لبعض الالفاظ التي لا معنى لها . وبتعبير آخر ان التاء صارت جزءا متمما لبعض الاسماء بحيث تصبح لا معنى لها اذا حذفت التاء منها ، مثل : الامسية والبكرة والرئة والبؤرة — فلا معنى لالفاظ الامسي والبكر والرىء والبؤر . اي ان التاء هنا قد التصقت ببناء الكلمة فاصبحت جزءا من نسيجها كحروفها الاصلية . وهذه يصح ان نسميها (التاء اللازمة) .

رابعا : صارت التاء اداة لتكوين بعض المصادر كما في الفعلين: دحرج واستقام، فمصدراهما: دحرجة واستقامة — وهي قاعدة قياسية لا حيد عنها ، اما في الفعل المضعف فان التاء وجوبية احيانا في مثل : وصى توصية وعبا تعبئة .. وجوازية احيانا في مثل : قدم تقدمة او تقديما ، وكرم تكرمة او تكريما .. وممنوعة احيانا كما في علم تعليما وكسر تكسيرا ، فلا يقال تعلمة وتكسرة . وهذه أجدر بأن تسمى (التاء المصدرية).

خامسا : صارت التاء تؤدي معنى الحرفة في مثل: الكهانة والسفارة والسدانة والعيافة — اي حرفة الكاهن والسفير والسادن والعائف . وهذه نسميها (تاء الحرفة) .

سادسا : صارت التاء تؤدي ايضا معنى توكيد الصفات في مثل : النسابة والدواقة والراوية . فاذا حذفنا التاء من هذه الصفات فقلنا النساب والذواق والراوي ، ضعفت قوة المعنى ، على حين انه لا يجوز حذفها من بعض الصفات المؤكدة بها مثل الطلمة والهمزة واللمزة (بضم الاول وفتح الثاني في اللفظات الثلاث) — اي الكثير التطلع والهماز واللماز ، فلا يقال فيها : الطلع والهمز واللمز ، وهذه التاء أجدر بأن تسمى (تاء التوكيد) . وهي تاء لازمة في نفس الوقت في الطلمة والهمزة واللمزة .

سابعا : صارت التاء تدل على معنى الافراد في بعض الاسماء كالشجرة والحمامة والسمكة ، فاذا حذفت من هذه الاسماء وامثالها صارت تدل على الجمع اي اسم الجنس : الشجر ، الحمام ، السمك، ولا يمكن اعتبارها تاء تانيث حتى في الحمامة والسمكة وغيرهما من الاحياء ، لان الكثير من امثال هذه الاسماء تطلق على الذكر والانثى دون تمييز . وتتجلى وظيفة الافراد على نحو أوضح في مصادر بعض الافعال. فالنظرة هي النظر مرة واحدة ، والابتسامة والضربة والاكلة هي الابتسام والضرب والاكل مرة واحدة . فهي اذن (تاء الافراد) .

ثامنا : على العكس من هذا صارت التاء تعني الجمع في اسماء اخرى مثل : العدناني والقحطاني

والمصري واليماني والسياف والخيال .. فقد جمعوها على عدنانية وقحطانية ومصرية ويمانية وسيافة وخيالة — اي بمجرد اضافة التاء الى الاسم المفرد دون تغيير في تركيب بنيته . على حين ان بعض الاسماء تتغير بنيتها اذا جمعت بالتاء مثل جمع الماشي والبازي على مشاة وبزاة ، وجمع القائد والسائق على قيادة وسياقة ، وجمع الفساني والمنذري على فسانية ومناذرة ، وجمع الكاتب والفاعل على كتبة وفعلة ، وجمع الدب والفيل على دببة وفيلة .

ومن الطريف ان التاء صارت اداة الجمع في بعض اللغات الآرية ايضا كالانجليزية والفرنسية والاسبانية ، لكن بعد ابدالها سينا (S) ، وابدال التاء سينا موضوع له اهميته اللغوية الخاصة ، وقد اوضحناه في كتابنا الآنف الذكر ، والعدد المذكور من مجلة « اللسان العربي » .

هذا في الإسم ، غير ان فعالية التاء في ميدان الجمع شملت الفعل ايضا ، كما في : قالت الاعراب وتقول الرجال ، فالتاء هنا تعني الجمع لا التانيث كما توهم النحاة ، بدليل ان التاء في قولنا (انفضت الناس) تحل محل واو الجمع في قولنا (الناس انفضوا) ، وانها في قولنا : (تفعل الرجال) تعمل عمل الواو والنون في قولنا (الرجال يفعلون) . وهذه التاء ما هي الا (تاء الجمع) .

تاسعا : واخيرا ناتي الى تاء النحويين ، اي التاء التي تدل على التانيث في اسماء بني الانسان والحيوان اي الكائنات المنقسمة الى اناث وذكور مثل : مرأة وهرة ونمرة وسعيدة وعاقلة — تانيثا لمرء وهر ونمر وسعيد وعاقل . وهي نفس التاء الملحقة بالفعل الماضي في قولهم : جاءت وذهبت — تانيثا لقولهم : جاء وذهب

وكانت التاء الملحقة بالاسماء تنطق صريحة فيما نعتقد حتى عند الوقف عليها في آخر الكلام كما هي الحال في الفعل الماضي (فعلت هي) . وما زال بعض العرب على ذلك اي ينطقون تاء التانيث في الاسماء حتى عند الوقوف عليها فيقولون حين يقرأون في الفصحى : الشجاعت والحرارت والانسانيت — وهي احدى اللهجات في لبنان . ومثل ذلك يفعل الاتراك والفرس في الالفاظ العربية الدائبة المستعملة في لغتيهما مثل: محبت امانت ، سلطنت ، انسانيت ، ملت .

وقد نطق بعض العرب اسماء الاناث بعد الفتحة قبل التاء ، ولا يزال على ذلك بعضهم كالمغتربين في نطق شربات وعنايات (اسم علم للانثى) ، ومع الزمن تخصصت هذه الصيغة المديدة لدى الاعربين بجمع المؤنث السالم ، مثل جميلات وراضيات وفائبات .

في اللاتينية :

وبعض العرب المعاصرين ينطقون تاء التانيث في لغاتهم الدارجة في بعض الاسماء ويهملونها في بعض ، كالعراقيين الذين ينطقونها في مثل: المساوات والحيات والشربت ، ويهملون نطقها في مثل : الحرية والتربية والصلاة .

واهمال نطق التاء في بعض الالفاظ منحدر من اصل عربي عريق فيما يظهر ، منشؤه ان بعض الاعربين صاروا يسقطونها في الاسم عند الوقف عليها في آخر الكلام فقط — كما هي الحال في الفصحى الى يومنا . وبذلك زالت التاء وبقي منها اثر هو الهاء الساكنة ، ومن هنا صارت المعاجم العربية تسميها (الهاء) بدل (التاء) . والواقع انها ليست هاءا بالمعنى الصحيح فهي على الاغلب تنطق مجرد فتحة على آخر الاسم . ويظهر ان بعض اللهجات القدمى اتخذت ذلك قاعدة عامة لها حتى عند وقوع التاء في داخل الجملة ، وقد بقيت هذه القاعدة في بعض اللغات الآرية كاللاتينية والايطالية ، ففي اللاتينية يقال : filia (بنت) ، و amica (صديقة) ، و lupa (ذئبة) — تانيثا لقولهم filius و amicus و lupus . وهذه المؤنثات الثلاث توجد بنفسها في الايطالية — غير ان البنت تكتب figlia (وتنطق filia ايضا) . اما مذكراتها في الايطالية فهي : figlio و amico و lupo

واما في الفرنسية فان التاء تنطق صريحة في الالفاظ المؤنثة بها مثل toutes (جميع ، للمؤنث) و cette (هذه) و coite (هادئة) — ومذكراتها tous و ce و coi يضاف الى ذلك في الفرنسية ان تصغير الاناث ايضا يتم بالحاق التاء في مثل : table (منضدة) و casse (صندوق) و française (فرنسية) — وتصغيرها : tablette و cassette و francette

اختلاط الوظائف :

صفوة القول ان التاء وردت فى معان مختلفة متعددة متميزة ذكرنا ما يحضرنا منها هنا باجمال ، ولا ندري ان كنا قد اغفلنا بعض حالاتها المهمة ، لكننا نتوقع على كل حال ان المستقبل سينتج بحوثا مفصلة فى هذا الموضوع بعد التتبع الطويل والاستقراء الشامل، وما نرجو لحديثنا هذا السريع الا ان يكون خميرة لذلك المستقبل .

ويكفينا الان ما تقدم بنا من مظاهر التاء التي سميناها بحسب وظائفها : التاء الزائدة ، وتاء التغيير، والتاء اللازمة ، والتاء المصدرية ، وتاء الحرفة ، وتاء التوكيد ، وتاء الافراد ، وتاء الجمع ، واخيرا تاء التانيث. افليس من العجب العجاب ان النحاة المشهورين بتدقيقاتهم المبالغ فيها فى بعض التوافه ، لم يميزوا بين حالات التاء المختلفة هذه بل احتطبوها جميعا ، خبط عشواء ، وكدسوها تحت اسم تاء التانيث !

وقبل ان نفرغ من حديث التاء وننتقل الى مظهر آخر من مظاهر التانيث فى العربية يجدر بنا ان نلاحظ ان الاعتباطات التطورية قد عملت عملها فى خلط وظائف التاء بعضها ببعض شانها فى مختلف التطورات اللغوية. اي اننا نجد للتاء اكثر من وظيفة واحدة فى الكلمة الواحدة احيانا ، مثل : تفعل انت وتفعل هي ، تفعلان انتما وتفعلان هما الغائبتان ، اقبلت الجارية واقبلت الفرسان. ومثل ذلك: المراة العدنانية والعرب العدنانية. بل قد تجتمع فى الكلمة الواحدة ثلاث وظائف مثل (النسابة) وهي تعني المراة النسابة او الرجل النساب او الرجال النسابين . وشبيه بذلك (السفارة) التى اكتسبت الآن معنى حديثا بالاضافة الى معناها القديم — فقد صارت السفارة تطلق على المؤسسة الرسمية التى يراسها السفير .

غير ان هذا الاختلاط فى المعاني لا يرفع الملامة من النحويين الذين لم يتفهموا شيئا من نشاطات التاء اصلا ، فقد كان عليهم — جزاهم الله رفعا ونصبا ووقاهم الكسر والجر — ان يميزوا بين بعضها وبعضها ويسموا كلا منها باسمه كما ميزوا مثلا بين حالات النصب الكثيرة فى الاسماء وسموا كلا منها باسمه .

العدد والمعدود

وناتي الآن الى تلك القاعدة الشذودية التي حيرت الافهام واعتبرت من بدوات اللغة العربية ونزواتها البوهيمية ، وهي قاعدة تانيث العدد (من الثلاثة الى العشرة) مع الذكور وتذكيره مع الاناث ، لنتفهمها على ضوء تحليل وظائف التاء . فما تفسيرها يا ترى؟

مفتاح هذا اللغز هو التفريق بين وظيفتي الجمع والتانيث . فقبل كل شيء يجب ان نعترف بان التاء فى (الثلاثة) واخواتها انما هي تاء جمع لا تاء تانيث، فحين قال اجدادنا البداة فى عهد جاهلي سحيق : سبعة فرسان ، لم يخطر لهم ان يؤنثوا الفرسان مثلما لم يخطر لهم ان يؤنثوا اليمانيين والغازين والخيالين حين سموهم : يمانية وغزاة وخيالة .

اما فى حالة عد الاناث فقد استثقلوا اجتماع التامين — تاء جمع العدد وتاء تانيث المعدود — فى مثل (خمسة بقرات) فاسقطوا احدى التامين ، تخفيفا . ولقد كان التطور اللغوي منطقيا جدا هذه المرة اذ اسقط تاء الجمع ، لا تاء التانيث ، لان معنى الجمع مفهوم بذاته فى اسم العدد . اما لو انهم اسقطوا تاء التانيث من البقرات والفتيات والوالدات لتغير معنى التانيث الذى اراده القائل ، فلذلك امتنعوا منه .

وحذف تاء الجمع من العدد ينطبق كذلك على جميع اسماء الاخلاء (الجمادات) المنتهية بالتاء كالنخلات والهضبات والجفنات ، ثم سرى ذلك على جمع اسماء الاخلاء المؤنثة ، ولو لم تكن منتهية بالتاء ، كالعصي والدور والفؤوس والحروب .

هذا التفسير يؤيده لنا انهم وازنوا — لغرض التخفيف ايضا — بين التامين — وكلتاهما للجمع — فى الاعداد المعشرة ، فصاروا اذا نطقوا التاء فى احد شطري العدد اسقطوها من الآخر ، فقالوا : خمسة عشر حصانا وخمس عشرة فرسا ، اي انهم استعملوا تاءا واحدة لكل من المذكر والمؤنث فى كل من الحالتين .

لم يكن غرض القوم اذن تانيث الرجال ولا تذكير النساء ترضية لغرور المراة واعترافا ببأسها .

هـــو وهـــي :

هذا جانب من حكاية التانيث ، فلننتقل الآن الى الجانب الآخر منها لنتحسس ابعاده فى ضمير الغائب (هو) وتطوراته .

ان تانيث الاسم يعرف من صيغته مثل : جميلة وذلفاء وعطشى ، او من معناه مثل : مرضع وطالـق وحامل ، او من الضمير الدال عليه مثل : هـي ، هـن .

والذي نعتقده ان العرب كانوا اول الامـر يستعملون ضمير (هو) لدلالة على الذكر والانثى والخلو جميعا — انسانا وحيوانا وجمادا .. وما زال الامر على ذلك فى الفارسية التي ينطق فيها هـذا الضمير بصورته البدئية (او — u)) ، اي كما كان ينطقه العرب قبل ان يبدلوا همزته هاءا . نعني ان العرب كانوا فى عهودهم اللغوية الاولى يقولون : هو الرجل، هو المراة ، هو الشمس ، هو القمر . ثم ظهرت فئة منهم نطقت (هو) بالكسر : (هي) بنفس المعنى . ثم اختلطت هذه الفئة من العرب بغيرها من الفئات العربية فصار المختلطون يقول بعضهم (هو) وبعضهم (هي) ، ثم نشا منهما جيل يستعمل كلا الضميرين بمعنى واحد . ومما يدل على ان الضمير (هي) كان يستعمل اولا للذكر انه ما يزال كذلك فى الانكليزية بنفس النطق (هي : he)) . كذلك اطلق الساميون القدامى فى ارض بابل ضمير (هي) — قبل ابدال همزته هاءا — بصيغة (ايا — Ea) على الاله الذكر (ماء الغمر)

وبمرور الزمن تخصصت فى العربية صيغة (هو) بالمذكر وصيغة (هي) بالمؤنث . وتظهر (هي) بمعنى التانيث فى اللاتينية (ايا : ea)) اي نفس اسـم الاله (ماء الغمر) .

ومثل هذا التخصص مالوف فى التطور اللغوي حين تظهر لفظتان بمعنى واحد مع وجود معنى آخر لا لفظ له . فالعادة أن المعنى المحتاج الى لفظ يعبر به عن وجوده يختطف احد اللفظين المترادفين . وهكـذا اختطف معنى التانيث (هي) واستاثر بها لنفسه .

فعندئذ تناقصت فوضى التانيث والتذكـير فى العربية . ذلك بان الجماد كذي الروح لابد مـن الاشارة اليه بضمير ما . وقد كان يقال للجماد (هو) و (هي) دون تمييز عندما كان معنى الكلمتين واحدا ، اي عاما لثلاثة اصناف : الذكور ، والاناث ، والاخلاء . وهكذا صار بعضهم يقول : هو الروح وهو العنق وهو السكين وهو الطريق وهو السبيل .. وبعضهم يقول : هي الروح وهي العنق وهي السكين وهي الطريق وهي السبيل ، اي انهم اضطروا الى تذكير الجماد الخلو او تانيثه لانهم لم يجدوا ضميرا ثالثا يخصونه به كمـا خص الانكليز مثلا ضمير it بالخلو الغائب المـجـرد (لكنهم استعملوا نفس الضمائر للمذكر والمؤنث والخلو فى الحالات الاخرى اي فى حالات الخطاب والجمع) . ومع الزمن استقر التانيث فى العربية لبعض الاخـلاء كالنار والحرب والدار، واستقر التذكير لبعضها كالجبل والنهر والليل والنهار ، وظل بعضها الآخر هائمـا مترددا بين الحالين اي يؤنث ويذكر دون تمييز كالروح والعنق والسكين ..

من جهة اخرى نجد ان التاء ايضا قد تخصصت بالتانيث فى مثل الوالدة والمراة والسعلاة والجنية ، ومن هنا صارت العادة ان تعامل كل اسماء الاخلاء المنتهية بالتاء معاملة المؤنث وكانما توهم قدامى العرب — كما توهم النحاة من بعدهم — ان تاء البانة والركوة والخيمة والرابية ايضا تعني التانيث فقالوا : هي البانة وهي الركوة وهي الخيمة .

وبتعبير آخر ان التانيث (الحقيقي) قد تفاعل فيه ضمير (هي) فى مثل هي الاتان ، مع تاء التانيث فى مثل الذئبة والفتاة ، فصارت (هي) تستعمل كقاعدة عامة مع اسماء الاناث سواء اكانت منتهية بالتاء ام لم تكن ، ومع اسماء الاخلاء المنتهية بالتاء . وقد عوملت هذه الاسماء معاملة الاناث فى مختلف حالات الكلام ، فصاروا يقولون : هي الاتان وهي الشمعة وهـي الغابات .

اما ما يدل على الذكر والانثى من الاسماء غير التانية مثل الفرس فيؤنث اذا قصدوا الانثى ويذكر اذا قصدوا الذكر .

واما الاسماء التي يجوز نطقها بالتاء وبدونهـا كالنجمة والليلة فقد انثوها مع التاء وذكروها بدونها فقالوا : هو النجم وهي النجمة وهذا الليل وهـذه الليلة ، وذلك الماء وتلك الماءة . لكن الضفدعة انثوها فى كلتا الحالتين فقالوا : تلك الضفدعة وهذه الضفدع ، لانهم اعتبروها انثى فى كلتا الحالتين ، اما ذكر الضفدع فسموه العلجوم .

واذا كانت حياة الاستقرار والاجتماع في صعيد قد ادت الى ثبوت القواعد اللغوية ، مثل التأنيث بالفتحة كقاعدة عامة في اللاتينية ، فان حياة التنقل في المعربة وتكرار افتراق اهلها واجتماعهم على غير نظام قد جعل من المعربة مختبرا لغويا تقع فيه تجارب لغوية كثيرة التنوع والتعقيد دائمة التفاعل والتمخض والتولد . (وقد استمرت المعربة تصدر نماذج منها الى الخارج، لغات ولهجات، على السنة الآريين والحاميين والساميين ، منذ سحيق العصور) .

وبنتيجة ذلك التفاعل والتمخض والتولد في المعربة صار بعض القبائل يؤنث بعض اسماء الاخلاء كما رأينا ، وبعض القبائل يذكرها ، وبعضهم يؤنثها ويذكرها. فلهذا اختلف اللغويون فيما يؤنثون ويذكرون من اسماء الجمادات لان بعضهم يروي عن هذه الطائفة وبعضهم عن تلك .

وقد اخذ المحدثون من معاصرينا يميلون الى اعتبار (هو) ضميرا عاما للتذكير والتجريد من المنسل (1) معا ، فقل اليوم من يقولون (هي الطريق) واقل منهم من يقولون (هي السوق) فيما عدا قولهم: السوق السوداء والسوق المشتركة . واما كلمة (السلم) فلا نظن اننا قراناها مؤنثة لاحد من المحدثين ولا حتى المتنطسين منهم . واما (الريح والغول) فلا نذكر انهما مرا بنا شخصيا مؤنثين في شعر او نثر حديث ولا قديم، بالرغم من ان اللغويين ادرجوهما ضمن الاسماء المؤنثة .

وفي اللهجة المصرية يؤنثون الامضاء والهناء مثلا وينطقونهما الامضة والهنة لانتهائهما بالفتحة ، وفي اللهجة المغربية يؤنثون الزيت لانتهائه بالتاء . وبعض العراقيين يؤنثون الراس والباب والبطن . بل ان بعض ضعاف الكتاب من معاصرينا يفعلون ذلك ايضا ، وقد وجدناه حتى عند ذوي الاسماء الآفاقية (اي التي طبقت شهرتها الآفاق) .

هذه البلبلة التي كانت شغلا شاغلا للغويين القدامى ، هي التي حدت ببعضهم الى ان يقول بجواز التأنيث والتذكير في جميع اسماء الجمادات التي لا تدل صيغتها على التأنيث . واصوب من هذا هو الاتجاه الذي ينتحيه التطور في هذا الجيل كالذي نوهنا به ، اي تغليب التذكير على الاسماء الخلوة ، الا ما ورد في صيغة التأنيث او استقر في الكلام تأنيثه حتى في الدارجات كالشمس والارض والحرب والنار ..

ونشاهد القدامى العرب انهم اصابوا حين انثوا بعض الاسماء مع خلوها من علامة التأنيث كالظئر والمرضع والحامل ، لان هذه الصفات لا تكون الا في الاناث ، ولو انهم — العرب — شذوا حين عمموا صفة الولادة على الرجل . ويبطل استغراب القارىء لقولنا هذا اذا تذكر انهم يسمون الاب (الوالد) مع استحالة الولادة عليه . واضفاء صفة الولادة على الاب وهو منها براء ليس كذلك من باب مجاملة المراة او الخضوع لسطوتها ، وانما جاء من اطلاق (الوالدين) على الام الوالدة والاب ، كما اطلقوا (القمرين) على الشمس والقمر . وقد اطلقوا عليهما (الابوين) ايضا ، لكنهم لم يسموا الوالدة ابة كما سمو الاب والدا .

الا ان ذلك المنطق — في الظئر والحامل والمرضع — يطير هباءا في مثل : الخادم والعاثر والرسول والضيف وامثالها من الاسماء التي تطلق على الذكر والانثى ، اي ان الصيغة في هذه الاسماء يمكن اعتبارها خنثى ، وانما تكون ذكرا او انثى حين تميزها قرينة من الضمائر او غيرها حيث يقال : هي الخادم ، وهن العاثرات ، وتلك الرسول ، وهذه الضيف .. او : هو الخادم وهم العاثرون ..

تانيث الجموع :

والآن وقد رأينا التأنيث في حالتيه ، اي نشوئه من اضافة التاء اولا ومن استعمال ضمير (هي) ثانيا ، نأتي الى ظاهرة اخرى منشؤها اختلاط معنى الجمع بالتأنيث ، في كلتا الحالتين .

ان معاملة بعض الاخلاء من الجمادات معاملة الاناث قد سرت عدواها الى جموع تلك الجمادات ثم الى جموع كل الجمادات ، فصارت تؤنث بالتاء ويشار اليها بما يخص الانثى المفردة من الضمائر واسماء الاشارة والصفات ، ما تجتمع نماذجه في مثل قولك : تلك هي (الجبال) الشماء الزاهية التي تسر رائيها . فجميع الالفاظ في هذه العبارة خاصة بالانثى مع انها تدل على الجبال التي مفردها (الجبل) مذكر .

---

1) نقصد بالمنسل — زنة المبرد — آلة التناسل للذكر والانثى .

وتعامل الاخلاء احيانا معاملة جمع المؤنث السالم فيقال « انهن عصور متطاولات ودهور داهرات » .

فاذا اضفنا الى هذا جموع المؤنثات الحقيقيات من بني الانسان والحيوان علاوة على بعض أسماء الذكور التي تجمع بالتاء كاليمانية والخيالة ، وتقول الرجال وتفعل — مما ظنوه تأنيثا — اتضح لنا لماذا تغلب التأنيث على اكثر الجموع ، وعرفنا لماذا قال شعرور النحاة :

ان قومي تجمعوا ... وبقتلي تحدثوا
لا ابالي بجمعهم ... كل جمع مؤنث !

وما سميناه شعرورا لفشاشة شعره لكن لانه زعم بالاضافة الى ذلك ان (كل جمع) مؤنث ، متجاهلا جموع الذكور مثل : هم الرجال ، فعلوا ، ويفعلون ، وفاعلون . ولو قد قال بدلا من ذلك « رب جمع مؤنث) لاحسن واصاب ، بمعنى أن (رب) للتكثير لا للتقليل .

فهذا فيما نظن موجز حكاية هذا التانيث الفوضوي الذي بلبل بال اللغويين والنحويين ، قديما وحديثا ، من شرقيين ومستشرقين — المسؤول فى احداثه ضمير (هي) الذي خدع العرب الاقدمين بمعنييه للتذكير والتأنيث ، وشريكته فى الجرم (التاء) التي خدعت العرب الاقدمين والنحاة من بعدهم بمعانيها الكثيرة المتشابكة .